المَقَالَهْ

في نُصحِ من التمسَ العلم وابتغى نوالَهْ

تصنيف
صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي
غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الَّذي جعل طلب العلم مِن أجلِّ القُرُبَات، وتعبَّدنَا به طولَ الحياةِ إلىٰ المماتِ.

وأشهد ألَّا إله إلَّا الله، وأشهد أنَّ مُحمَّدًا رسولُه ورحمتُه المهداه.

صَلَّىٰ عَلَيْهِ اللهُ مَا جَرَىٰ الْقَلَمْ   وَآلِهِ وَصَحْبِهِ ذَوِي الْحِكَمْ

ثُمَّ السَّلَامُ صِنْوُهَا الْمُخْتَارُ   مُعَمَّمًا مَا مُدَّتِ الْأَبْصَارُ

مِنْ ضَارِبٍ فِي الْأَرْضِ لِلْعُلُومِ   مُلْتَمِسًا هِدَايَةَ الْقَيُّومِ

أمَّا بعدُ:

فإنَّ فضيلة العلم مشهوره، وحُجَجَ شرفِ أهله متكاثِرةٌ مَوْفُوره، فهو مَنبعُ الخير في الدَّارين، وجُنَّةُ العبد من شرور النَّشأتين.

به تحيا القلوب وتَسْلَم، وتطمئنُّ النُّفوس وتُحكَم، فَمَنْ وعىٰ قلبُه العلم النَّافع ذاقَ حلاوة الأُنسِ بالله، ووجد لذَّة طاعتِه والتماسِ رضاه.

فمبتدأُ طلبِه من القلوب، وجميلُ أثرِه إليها يرجع ويؤوب.

قال الله تعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت:٤٩].

وللعلم آلةٌ تُقرِّب نَوَالَه، وتذلِّل صِعابَه، وأوعىٰ مقالةٍ بيَّنَتْ آلتَه - ممَّا طالعتُه - ما ساقه الماوَرديُّ في «أدب الدُّنيا والدِّين»، وقد جعلَها تسعةَ أمورٍ - مع ما يلاحظ المتعلِّمَ منَ التَّوفيق، ويُمَدُّ به من المعونةِ -:

الأوَّل: العقلُ الَّذي به تُدرَك حقائق الأمور.

والثَّاني: الفِطنة الَّتي يَتصوَّرُ بِها غوامضَ العلوم.

والثَّالث: الذَّكاء الَّذي يستقرُّ به حفظُ ما تصوَّره، وفهمُ ما علمَه.

والرَّابع: الشَّهوة الَّتي يدومُ بِها الطَّلب، ولا يُسرِع إليها الملل.

والخامس: الاكتفاء بمادَّةٍ تُغنيه عن كُلَفِ الطَّلب.

والسَّادس: الفراغُ الَّذي يكون معه التَّوفُّر، ويحصل به الاستكثار.

والسَّابع: عدم القواطع المذهلة؛ مِن همومٍ، وأشغالٍ، وأمراضٍ.

والثَّامن: طولُ العمر، واتِّساعُ المدَّة؛ لينتهيَ بالاستكثار إلىٰ مراتب الكمال.

والتَّاسع: الظَّفَرُ بعالمٍ سمحٍ بعلمِه، متَأنٍّ في تعليمِه.



واعلم أنَّ العلمَ ميراثُ النُّبوَّة، وهي اصطفاءٌ منَ الله لِمَنْ شاء من رُسُلِه؛ ليُبَلِّغوا دينه وشرعَه، وصفوتُه في هذه الأمَّة منَ الأنبياء محمَّدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وقد أدَّىٰ الأمانة، وبلَّغ الرسالة، فهُدِي به الخلقُ للحقِّ، وعَلِمُوا ما لهم وما عليهم، وما أُعِدَّ من الجزاء لمَنْ آمن ولمَنْ كفر.

وقد جعل الله له وُرَّاثًا، هُم حملة الدِّين منَ العلماء وشيوخ العلمِ، فمَنْ رام علمَ الرِّسالة المحمَّديَّة والدِّيانة الإسلاميَّة أخذَه عنهم دون غيرهِم، وإن عظُم قدْرُه في الخلق؛ كالملوك والكُبَراء والأغنياء.

فتُؤخَذ أصول الفنون حفظًا وفهمًا عن شيخٍ عارفٍ متَّصفٍ بوصفين:

أحدهما: الأهليَّة في الفنِّ، بتمكُّنه في النَّفس.

والآخر: النُّصح، وحُسن المعرفة بطرق التَّعليم.

فمَنِ اجتمعا فيه مِنَ الشُّيوخ فهو أولىٰ بالأخذِ عنه، وإن كان غيرُه أعلمَ منه.

فاحرِصْ علىٰ مَنْ تقدَّم وصفُه، فإنْ لم تجدْه في بلدكَ فارتحِلْ، فإنَّ الرِّحلةَ في طلب العلمِ والدِّين؛ مِن سَنَن عبادِ الله المُؤمنين.

فَصْلٌ

واعلمْ أنَّ فنونَ العلم متعدِّدةٌ، وألوانَه متنوِّعةٌ، وينبغي أن يكون هَمُّ الطَّالب الأعظمَ: تحصيلُ علومِ المقاصد، والتَّفقُّه في الوحيين، مجتهدًا في استكشاف مَداركِها، والنَّهْلِ من مواردها، وتوسعةِ الكلام وتحقيقِه فيها، فبه تجودُ مَلَكة العلمِ في النَّفس وتقوىٰ.

وأمَّا العلوم الآليَّة المُوصلَة إليها - كعلوم العربيَّة، والأصول -؛ فلا يشتغل بِها إلَّا بقدر ما يقف به علىٰ مقاصد العلمِ المنظور فيهِ، دون إدامة نظرٍ تُبلِّغُه غَوْرَه، فإنَّ العلوم الآليَّة كثيرةُ العَدد، ثقيلة العُدَد؛ لطولِها وكثرةِ فروعها، وهي للعلم بمنزلة الملح للطَّعام، إن زاد ساء وإن نقصَ ساءَ، وأعظمُ المصاب بِها إن صارت حائلًا دون العلوم الأصليَّة.

ولا يتأتَّىٰ للطَّالب الظَّفَرُ بما يُؤَمِّله من علومِ المقاصدِ والوسائلِ حتَّىٰ يكون:

_ نَهَّازًا للفرص.

_ مبتدئًا للعلم من أوَّله.

_ آتِيًا له من مَدْخَلِه.

_ مُنصرفًا عن التَّشاغل بطلب ما لا يضرُّه جهلُه.

_ مُلِحًّا في ابتغاءِ دَرْكِ ما استصعب عليه، غير مهْمِلٍ له.

فَصْلٌ

واعلمْ أنَّ ممَّا يُعِين الطَّالب علىٰ الظَّفَر بالعلم؛ جمْعَ نفسه علىٰ تلقِّي الأصول تحفُّظًا وتفهُّمًا؛ فإنَّ إفراغ زهرةِ العُمُر وقوَّة النَّفس في طِلابِها أحسنُ الانتهازِ للفرصةِ وأكملُه، وبِها ابتداءُ العلوم مِن أوائلها، وإتيانُها مِن مداخلها.

فأقبِلْ علىٰ حفظِ الأصول المعتمَدَةِ في فنون العلم وتفهُّمِ مقاصدِها، جامعًا بين ضبطِ المبنىٰ ووعْيِ المعنىٰ؛ فهي سُلَّم الارتقاء إلىٰ الحِذق في العلم، وتحصيلِ ملَكَةِ الفَنِّ؛ فإنَّ الحذق يُدرَك بثلاثة أمورٍ:

أوَّلها: الإحاطة بمبادئ العلم وقواعدِه.

ثانيها: الوقوف علىٰ مسائله.

ثالثها: استنباط فروعه من أصوله.

وأيسرُ سبيلٍ للتَّحقق بِهذه الأمور الثَّلاثة: بقرُ الأصول، واسْتِبْطَانُ منطوقها ومفهومها، حتَّىٰ يمتلئَ القلبُ بحقائقها، وتَثْبُتَ في النَّفسِ مقاصدُها، فيصيرَ الممارسُ لها ذا حذقٍ وبصيرةٍ بِها.

وانْهل مِن موارد العلوم أصلًا وفرعًا، غايةً وآلةً، **فالتَّبحُّر في العلم فضيله، والمشاركة في كلِّ فنٍّ غنيمه.**

وما أحسنَ - عند أهل الذَّوقِ والوَجْدِ مِن طلَّاب المعاني - قولَ ابن الورديِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

مِنْ كُلِّ فَنٍّ خُذْ وَلَا تَجْهَلْ بِهِ   فَالْحُرُّ مُطَّلِعٌ عَلَىٰ الْأَسْرَارِ

ويقبُح بالمرء أن تكون له قدرةٌ وليست له همَّةٌ، فيَقْعُدُ عنِ استنباط علمٍ مع القدرة عليه، ويتباعد عنه مع قُرب طريقِ وصولِه إليه.

ومِن خصائصِ علوم الدِّيانة ارتباطُ بعضها ببعضٍ، فمَحِلُّها إلىٰ النُّورين: القرآنِ والسُّنَّةِ، وهما وحيٌ من الله، وإذا كان المَنْبَعُ واحدًا؛ كان الارتباط واضحًا.

قال الزَّبيديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «ألفيَّة السَّنَدِ»:

فَإِنَّ أَنْوَاعَ الْعُلُومِ تَخْتَلِطْ وَبعْضُهَا بِشَرْطِ بَعْضٍ مُرْتَبِطْ

والتَّفريق بينها بالاقتصار علىٰ فنٍّ واحدٍ دون تحصيل حصول بقيَّة الفنون: مِن آثار الاقتداء بعلوم أهل الدُّنيا الَّتي سَرَت في كثيرٍ من المشتغلين بعلوم الشَّريعة.

وثبوتُ القَدَم علىٰ الصِّراط الأَتَمِّ هو في تحصيلِ أصول الفُنون دون اتِّساعٍ فيها، ثمَّ التَّشاغلِ بما شاءَ العبدُ منها، ممَّا وجد قوَّته فيه، وقدرَتَه عليه.

أمَّا بلوغُ الغايةِ وحصولُ الكفايةِ في علوم الدِّيانة جميعًا؛ فليس متهيِّئًا لكلِّ أحدٍ، بل يختصُّ به الله مَن يشاء مِن خلقه، وملاحظة الاختصاص تُهوِّن المغامرةَ فيه، وتَجَشُّمَ العناءِ حتَّىٰ ينال المُنىٰ.

لَأَسْتَسْهِلَنَّ الصَّعْبَ أَوْ أُدْرِكَ المُنَىٰ فَمَا انْقَادَتِ الآمَالُ إِلَّا لِصَابِرِ

فَصْلٌ

واعلم أنَّ الوصول إلىٰ الحِذق في العلم لا يتهيَّأ بأخذه دَفعةً واحدةً، بل لا بدَّ من تدريج النَّفس فيه شيئًا فشيئًا، ويتحَّقق هذا بتكرار دراسة الفنِّ في عدَّة أصولٍ له، تنتظم ارتفاعًا منَ الإيجازِ إلىٰ التَّوسُّطِ ثمَّ الطُّولِ، وقد يكون لكلِّ مرتبةٍ أصلٌ واحدٌ، وقد تضمُّ أصلين اثنينِ.

وتختصُّ الأصول الموجَزة بكونِها جامعةً للمسائل الكبار في كلِّ بابٍ، ثمَّ تتزايد مسائلُه في الأصولِ المتوسِّطَة والمطوَّلة.

ومفتاحُ الانتفاعِ بكلٍّ هو أن يتلقَّىٰ الطَّالبُ الأصولَ الموجزةَ علىٰ سبيل الإجمال؛ ليتهيَّأَ له بذلك فهمُ الفنِّ وتحصيلُ مسائِله.

ويتلقَّىٰ بعدَها الأصولَ المتوسِّطة؛ مستوفاةَ الشَّرح والبيانِ، مع ذِكْرِ ما هنالك من الخلاف ووجهِه، فتقوىٰ بذلكَ ملكتُه في الفنِّ.

ثمَّ يتلقَّىٰ بعدها الأصولَ المطوَّلة؛ مستكمِلًا شرحَها وبيانَها ومعرفةَ خلافيَّاتِها، ويُزَادُ له حلُّ المُشكلاتِ، وتوضيحُ المُبْهَماتِ، وفتحُ المقفلاتِ، فيصل بِهذه العُدَّةِ إلىٰ ملكةِ الفَنِّ.

وهو شبيهٌ باجتماع الخَلْقِ علىٰ ترتيب الدِّراسة النِّظاميَّة فيما دون الجامعة في مراحلَ ثلاثٍ: الابتدائيَّة والمتوسِّطة والثَّانويَّة.



الخاتمة

وإنِّي موصيك بأربعٍ لن تُدرِك العلمَ إلَّا وهنَّ معك، تصحبُكَ حتَّىٰ تموتَ:

أُولاهنَّ: التَّحقُّق بإخلاصِ النِّيَّة فيه، فإنَّ العلمَ صيدٌ وشِرَاكُه النِّيَّةُ، ومدارُ نيَّته المحقِّقة للإخلاص فيه علىٰ أربعة أمورٍ:

أوَّلها: رفع الجهل عن النَّفس؛ بتعريفها طريق العُبوديَّة.

وثانيها: رفع الجهل عن الخلق؛ بإرشادهم إلىٰ مصالح دنياهم وأُخراهم.

وثالثها: العمل به؛ فإنَّ العلم يُرَاد للعمل.

ورابعها: إحياؤُه وحفظُه مِنَ الضَّياع، وهذا المعنىٰ متأكِّدٌ في حقِّ المتأهِّل المهيَّأِ له، القادِر عليه.

وإليهنَّ أشرتُ بقولي:

وَنِيَّةٌ لِلْعِلْمِ رَفْعُ الْجَهْلِ عَمّْ ... عَنْ نَفْسِهِ فَغَيْرِهِ مِنَ النَّسَمْ

وَبَعْدَهُ التَّحْصِينُ لِلْعُلُومِ مِنْ ... ضَيَاعِهَا وَعَمَلٌ بِهِ زُكِنْ

فمنِ اجتمع له قصدُها كمُلت نيَّتُه في العلم.

والثَّانية: اعزِمْ ولا تتَردَّد، فالعزم مركبُ الصَّادقين، ومَنْ لم تكن له عزيمه؛ لم يفرح بغنيمَه، فإنَّ العزائمَ جلَّابة الغنائم، فاعْزِمْ تَغْنَم، وإيَّاك وأمانيَّ البطَّالين.

وَتَمُدُّ قوَّةَ العزمِ ثلاثة مواردَ:

أوَّلها: مورد الحِرص علىٰ ما ينفع.

وثانيها: مورد الاستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ.

وثالثها: مورد خلعِ ثوب العَجز والكسَل.

وهنَّ في قولِ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلَا تَعْجَزْ**»، فجُمَلُه الثَّلاث منابعُ المَوَارد، واحدًا واحدًا؛ حذوَ القُذَّة بالقُذَّة.

وممَّا يُحَرِّك العزائمَ: إدمانُ مطالعة سِيَرِ المُنْعَم عليهم من النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين؛ فالاعتبارُ بحالهم، وتَعَرُّفُ مصاعدِ هممهم؛ يثوِّر عَزْمَتَك، ويقوِّي شَكِيمَتَك، فلا تَحْرِم نفسَك مِن آثارهم، وطالِعْ ما استطعتَ مِن سِيَرِهم.

والثَّالثة: قلِّلِ الدُّروس وأحْكِمِ المَدْرُوسَ، ولازمِ التَّكرارَ، واحرصْ علىٰ مذاكرة الأقران، ففي المذاكرة إحياء الذَّاكرة، والعلمُ غَرْسُ القلبِ، والغرسُ بلا سُقيَا يموتُ، وسقيا العلم مذاكرتُه.

ومِن بدائع الألفاظ المُسْتَجَادةِ مِن قرائحِ الحفَّاظِ قولُ أبي الحجَّاج المزِّيِّ الحافظِ رَحِمَهُٱللَّهُ:

مَـــنْ حَـــازَ الْعِلْـــمَ وَذَاكَـــرَهُ   حَسُـــنَتْ دُنْيَـــاهُ وَآخِرَتُـــهْ
فَـــأَدِمْ لِلْعِلْـــمِ مُـــذَاكَرَةً   فَحَيَـــاةُ الْعِلْـــمِ مُذَاكَرَتُـــهْ

وتركُ الاستذكار بعد التَّحفُّظ والتَّفهُّم يَضيع به زمنٌ طويلٌ في ابتغاء استرجاعِ مفهومٍ ذهبتْ معانيه، أو محفوظٍ نُسِيَت مَبَانيه.

والرَّابعة: اصطحبِ السَّكينةَ والأناة، وتجمَّل بالصَّبْرِ، ففي التَّأنِّي نيلُ بُغْيَةِ المتمنِّي، والثَّباتُ نباتٌ، وإنَّما يُجمَع العلم بطول المدَّة وتجويد العُدَّة.

فمَن طلبَ العلم في أيَّامٍ وليالٍ فقد طلب المحال، ومن حشا قلبه شيئًا فشيئًا سالَ وَادِيه وأروىٰ قاصِدِيه، **ونِهاية العَجول تشتُّتٌ وأُفول.**

وهذا منتهىٰ المقالَه، في نصحِ مَنِ التمس العلم وابتغىٰ نوالَه، استَلَلْتُها من مدوَّنةٍ سابقه، رجاءَ منفعةٍ سامقه، فالخُلَاصة تدفع الخَصَاصة، وقِصَرُ الخطبةِ معَ البيان من مُنِيرَات الأذهان.

صَـــيَّرَهَا اللهُ لِكُـــلِّ مُلْـــتَمِسْ　　نَافِعَـــةً مُنِيـــرَةً لِلْمُقْتَـــبِسْ
وَخَتْمُهَـــا بِالْحَمْـــدِ فِـــي ذُرَاهُ　　يُبَلِّـــغُ الْعَبْـــدَ الَّـــذِي ابْتَغَـــاهُ
ومَـــنْ قَـــرَا فَلْيَـــدْعُ بِـــالتَّوْفِيقِ　　لِكَاتِـــبٍ وَقَـــارِئٍ مُطِيـــقِ

وكتبه
صالح بنُ عبد الله بن حمدٍ العُصيميّ
يوم الثُّلاثاء الحادي عشر من جمادى الأولى
سنة ثلاثٍ وثلاثين وأربعمائةٍ وألفٍ